مصطلح " القراءة المعاصرة للنص القرآني "

دلالته ... ونشأته

م.م. أحمد جاسم ثاني

جامعة البصرة/ كلية التربية

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

كثرت في هذا العصر الدراسات القرآنية التي تنادي بالفهم الجديد والعصري للقرآن الكريم، واتخذت لها مصطلحاً جديداً متمثلاً بـ (القراءة المعاصرة)، فصار هذا المصطلح يقابل المصطلح القديم؛ وهو (التفسير)، الذي يعني بيان مراد الله تعالى في آيات القرآن الكريم، وقد أثارت هذه الدراسات الجديدة إشكاليات خطيرة، وفتحت الباب للتأويل المنحرف، مما أدى إلى الابتعاد عن جوهر القرآن ومقاصده التي نزل من أجلها، فبدل أن تعنى هذه الدراسات بظاهر النص القرآني وبيان دلالاته ومعانيه التي تخدم الواقع وتحل مشكلاته، انشغلت بكثرة التأويلات البعيدة وغير المعقولة، وانحرفت عن أهدافها، مما يعني أن هذه الدراسات شكلت خطورة على الفكر الإسلامي، ((وتظهر خطورة هذا المنحى الفكري جليَّةً في محاولات ليّ أعناق النصوص القرآنية والخروج بها عن مفاهيمها الواضحة بادي الرأي لتتلاءم مع توجهات فكرية معينة، خاصة تلك التي ظهرت في بعض الدراسات القرآنية بما يمكن أن نطلق عليه القراءة العصرانية للقرآن، التي تعتبر المحضن الأول للتأويل الحر المؤسس وفق الخبرات الشخصية والتجارب الذاتية))[1].

من أجل ذلك فإن البحث في المصطلح الجديد الذي وسم تلك الدراسات يُعد من الأهمية بمكان، إذ يقف عند دلالة هذا المصطلح ونشأته وتطوره، مقارناً بين الاستعمال القديم والحديث للمصطلح، ومستعيناً بالمصادر القديمة والدراسات الحديثة اللغوية منها والقرآنية، مما يكشف عن الجذور الأولى لهذا التيار الخطير، ويعرّي تلك الأفكار البعيدة عن الإسلام.

---

[1] – قراءة في ضوابط التأويل وأبعادها المنهجية في الدراسات القرآنية المعاصرة، د. رقية طه جابر العلواني، بحث أُلقي في ندوة دراسة التطورات الحديثة في الدراسات القرآنية المعاصرة، بيروت / ٢٠٠٦م، ص: ٢.

علم المصطلح:

تُعد العربية من اللغات الحية التي تنمو وتتطور مع كل مرحلة حضارية يمر بها المجتمع العربي، وتواكب الحياة وترفدها بالمفردات الجديدة التي يفضي إليها التقدم الحضاري بكل صوره، تلك المفردات الجديدة هي التي تُعرف بالمصطلحات[١].

و**المصطلح** في اللغة مأخوذ من الصُّلْح، ومن معانيه التصالح والتسالم[٢]، ((فكأن الناس اختلفوا عند ظهور مدلول جديد، على تسميته، فذهب فريقٌ من القوم إلى إعطائه اسماً، واقترح فريقٌ آخر دالاً مغايراً، وارتأى فريقٌ ثالثٌ تسمية مباينة؛ وكان من نتيجة هذا اختلاف القوم واحتدام ما بينهم، إلى أن تصالحوا وتسالموا على تسمية واحدة لذلك المدلول))[٣].

ومع تقدم العلم والحاجة الدائمة إلى وضع المصطلحات صار للمصطلح علم يُعرف بـ (علم المصطلح) وهو من أحدث أفرع علم اللغة التطبيقي الذي يتناول الأسس العلمية لوضع المصطلحات وتوحيدها[٤].

مصطلح (القراءة):

(القراءة) في اللغة: من قَرَأَه يَقْرَؤُه قَرْءاً وقِراءَةً وقُرآناً، فهو مَقْرُوءٌ، وقَرأتُ الكتابَ قِراءَةً وقُرْآناً، ومعنى قَرَأْتُ القُرآن: لَفَظْتُ به مَجْمُوعاً أَي ألقيتُه[٥].

وقد أطلق مصطلح (القراءة) في عصر التنزيل على ((اختلاف ألفاظ الوحي في الحروف، وكيفيتها من تخفيف وتشديد وغيرهما))[٦]. فهو وجه من محتملات النص القرآني[٧]، ومذهب من مذاهب النطق به يذهب إليه أحد القرّاء ويخالف غيره[٨].

---

[١] – ينظر: علم المصطلح وطرائق وضع المصطلحات في العربية، د. ممدوح محمد خسارة: ٧.

[٢] – ينظر: لسان العرب، ابن منظور، (صلح): ٥١٧/٢.

[٣] – علم المصطلح وطرائق وضع المصطلحات في العربية: ١١.

[٤] – ينظر: علم المصطلح، د. محمود فهمي حجازي، مجلة مجمع القاهرة: ٦٢/٥٩.

[٥] – ينظر: لسان العرب، (قرأ): ١٢٨/١–١٢٩.

[٦] – معجم القراءات القرآنية، د. أحمد مختار عمر، ود. عبد العال عالم مكرم: ١٢٦/١.

[٧] – ينظر: تلخيص التمهيد، محمد هادي معرفة: ٢١٣/١.

[٨] – ينظر: مباحث في علوم القرآن، مناع القطّان: ١٥٣.

وهناك دلالة أخرى للقراءة غير شائعة الاستعمال في العربية وهي ((طريقة خاصة لتأويل ما يقرأه المرء لنصٍ فهمه غيره فهماً مختلفاً))[١]، فيُقال مثلاً: قراءة جديدة لنهج البلاغة؛ بمعنى: تأويل جديد له.

وتفيد النصوص التي وردت فيها المادة (قرأ) في العربية المعاصرة أنها ذات دلالتين؛ الأولى: هي (الدلالة الكلامية) أو فعل القراءة، أي تحويل النص المكتوب إلى أصوات منطوقة، أما الدلالة الثانية: ففيها توسع لمعنى (القراءة) ليشمل تحويل كل ما هو مجهول إلى معلوم عن طريق الفهم والتأمل والبحث والاستنتاج، ويمكن فهم العلاقة بين المعنيين من خلال صفتين في كل منهما: **صفة التحويل**، ففي المعنى الأول تحويل الألفاظ المكتوبة إلى أصوات منطوقة، وفي المعنى الثاني تحويل الشيء المجهول إلى المعلوم، **وصفة التعرّف** التي تتضمنها كلا القراءتين، القراءة بالنطق والقراءة بالفهم والتأمل[٢].

والعلاقة وثيقة بين الدلالتين، فلا يمكن الوصول إلى الفهم والتأمل إلا من خلال فعل القراءة ((الذي تنشط وتتفاعل عناصره خلف العين أي في دماغ الإنسان القارئ، وهو مظهر شديد التعقيد تسهم في تشكيله عمليات عقلية كثيرة ومعقدة))[٣]، على أن تكون تلك القراءة تأملية متفحصة تنطلق من العمليات الإدراكية وتعتمد على التذكر والتعرف والإدراك، قصد التركيز على فهم دلالات الخطاب اللغوي ومضامينه[٤].

وبطبيعة الحال فإن هذا النوع من القراءة هو عملية واعية، وهي تختلف عن الإدراك العفوي العارض لمحتوى نصٍ ما، فهي تمرُّ عبر عمليات ذهنية تتمثل بالإدراك، والتعرف، والفهم، ثم التفسير[٥]، ((وهذا ما يجعل فعل القراءة ظاهرة مركبة، ذات مستويات عديدة، يسْلمنا كل مستوى

---

[١] – معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكامل المهندس، مكتبة لبنان، ط/٢ ، ١٩٨٤، بيروت، ص: ٢٨٧.

[٢] – ينظر: الدلالة والكلام دراسة تأصيلية لألفاظ الكلام في العربية المعاصرة في إطار المناهج الحديثة، د. محمد محمد داود، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص: ١٠٥.

[٣] – مدخل إلى علم النص، محمد الأخضر الصبيحي: ٢٥.

[٤] – ينظر: تعليم وتعلّم اللغة العربية وثقافتها، المصطفى بن عبد الله: ٢٧١.

[٥] – ينظر: القارئ والنص (من السيميوطيقا إلى الهيرمينوطيقا)، سيزا قاسم، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب – الكويت، العددان: الثالث والرابع، مارس/ ١٩٩٥، ص: ٢٥٤.

إلى المستوى الذي يليه حتى تتم عملية الفهم؛ لأن الهدف من القراءة، في نهاية المطاف، هُوَ فهم المقروء))[1].

وفيما بعد قام بعض الحداثيين بربط مصطلح "القراءة" بالنص القرآني ليحل محل مصطلحي (التفسير والتأويل)، وهو أمر خطير طبعاً؛ لأنه يفتح الباب واسعاً أمام التخمينات والشطحات وقد صح قول أحد الباحثين: ((إن ربط مصطلح "القراءة" بمفهومه الحداثي بالقرآن الكريم، على أنه بديل أو قريب من مصطلحات كالتأويل والتفسير والتدبر يحتاج إلى كثير من التحرز والتدقيق))[2].

ويرى بعض الحداثيين أن مصطلحي (التفسير والتأويل) لا يعبران عن الدلالات اللامتناهية للنص القرآني؛ لذلك وجب تجاوزهما إلى مصطلح "القراءة"[3].

وقد شاع مصطلح (القراءة) في المرحلة المعاصرة من التفسير وتطوّر على يد الباحثين الحداثيين، مستعينين بمعطيات الدرس النقدي واللساني الحديث، يقول الدكتور قطب الريسوني: ((تميَّزت هذه المرحلة بشيوع مصطلح (القراءة) بوصفها موقفاً من النص، يرادف (التأويل) و(التحليل) و(الاستبطان). بيد أن (القراءة) شُحنت في مجال الدرس القرآني بدلالة خاصة تحيل على استثمار مناهج النقد الأدبي واللسانيات الحديثة، ولذلك لم يتردد الباحثون المعاصرون في نعتها بـ (الحداثية)، وهو نعت صادق يعبّر عن افتتان هذا المنحى التأويلي بالنموذج الغربي، وجرّه بعجره وبجره إلى ساحة التفسير))[4].

ومصطلح "القراءة المعاصرة" مصطلح جديد كلياً، جديد على مستوى الأدوات والمناهج؛ إذ يحيلنا إلى اللسانيات الحديثة، واللسانيات هي في المحصلة مناهج ونظريات تمثل بمجموعها أدوات بحث، وتعود بدايات ظهور هذا المصطلح إلى الأربعينيات مع مدرسة الأمناء في مصر،

---

[1] – مدخل إلى علم النص: ٢٦.

[2] – مفهوم القراءة عند الحداثيين وعلاقته بالتفسير، د. فاطمة الزهراء الناصري، (انترنت: ملتقى أهل التفسير).

[3] – ينظر: في قراءة النص الديني، عبد المجيد الشرفي: ٩٤.

[4] – النص القرآني من تهافت القراءة إلى أفق التدبر، د. قطب الريسوني، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط/١ ، ٢٠١٠، ص: ٢٠٧.

وقد يكون الفضل للكاتب السوري محمد شحرور في وضع مصطلح "القراءة المعاصرة" نظراً لما أثارته قراءته من ضجيج[1].

مصطلح (المعاصرة):

المعاصرة: مصدر عاصَرَ، ومن معانيها الحداثة والجدة، والمعاصرة: ((معايشة الحاضر بالوجدان والسلوك والإفادة من كل منجزاته العلمية والفكرية وتسخيرها لخدمة الإنسان ورقيّه))[2].

ويُراد من المعاصرة في فهم القرآن وتفسيره: ((ضرورة التوفر على أسلوب تفسيري جديد يُراعي الذهنية الموجودة ومستوى الثقافة العامة في مجتمعاتنا، ويأخذ قضايا الواقع بنظر الاعتبار))[3].

عوامل نشأة المصطلح:

في أواخر القرن العشرين وبدايات القرن الحادي والعشرين قام بعض الباحثين المسلمين من العلمانيين والمستشرقين الجدد بمحاولات تفسيرية وأفهام جديدة ومتحررة للنص القرآني الكريم، فسمّيت محاولاتهم بالقراءات المعاصرة، وحاول هؤلاء الباحثون أن يتجاوزوا بقراءاتهم التفاسير السابقة والكلاسيكية للنص القرآني، تدفعهم هواجس مختلفة عن تلك الهواجس التي انطلق منها علماء القرآن والمفسرون طوال القرون الماضية، وقد أسهمت عوامل وهواجس عدة في نشأة هذه القراءات المعاصرة والمتحررة للقرآن والمعارف الإسلامية في الوسط الإسلامي، كان أبرزها ما يأتي[4]:

١- هاجس العلوم والمعارف البشرية التي غيّرت الكثير الهندسة المعرفية للمعارف السائدة، ولاسيما العلوم والمعارف الإنسانية والاجتماعية، إذ تولت هذه العلوم البحث والنظر في الدين والنصوص الدينية والقضايا المتصلة بها، وذلك انطلاقاً من النظرة الظاهرية لتلك الأمور، فعلم النفس مثلاً اقتطع من تلك الظاهرة وجهها الذاتي، وعلم الاجتماع اقتطع من الظاهرة الدينية وجهها الموضوعي، وتناول علم التاريخ نشأة الأديان، وأشكالها وتحولها وانتشارها، وانحطاطها

---

[1] – ينظر: حوار حول الدراسات القرآنية والقراءات المعاصرة، (انترنت: ملتقى أهل التفسير).

[2] – معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط/١ ، ٢٠٠٨، (ع ص ر)، مج/٢ ، ص: ١٥٠٨.

[3] – المعاصرة القرآنية (بحث)، جواد علي كسار، كتاب دراسات قرآنية الصادر عن مجلة المنهاج: ١٨٦.

[4] – ينظر: أساسيات المنهج والخطاب في درس القرآن وتفسيره، محمد مصطفوي، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، ط/١ ، بيروت، ٢٠٠٩م ، ص: ٢٥١-٢٥٣.

في إطار الحياة الاجتماعية في ضوء النظرة المقارنة لتاريخ الأديان، وهكذا في بقية العلوم والمعارف المعاصرة، وجعلها منطلقاً في البحث عن الدين والفكر الديني ولاسيما النص الديني.

٢- هاجس دراسات الاستشراق حول الدين بشكل عام، والإسلام بشكل خاص، إذ أدت هذه الدراسات دوراً كبيراً في صياغة ذهنية الكثير من الدارسين المسلمين المعاصرين في البحث عن الدين، كما أن نتاجات الاستشراق في غالبها كانت بمثابة دراسات تطبيقية لمعطيات العلوم والمعارف الإنسانية التي سبق الكلام عنها، فتحولت إلى نماذج عمل بل "أنموذج معرفي" لكثير من الدراسات اللاحقة لباحثين مسلمين ذوي خلفية معرفية غربية في البحث عن الدين والنص الديني.

٣- عاملا الزمان والمكان، فقد عدّ الكثير من الباحثين من أصحاب القراءات المعاصرة النتاجات الفكرية والمعارف الدينية السائدة لدى المسلمين أنها مخلّفات من الماضي، ووصفوا النتاجات المتأخرة على نمط الماضي بأنها تجسّد موقفاً محافظاً وماضويّاً بل متحجّراً، فضلاً عن اعتقادهم بوجود مسافة فكرية شاسعة بين ما أصّله القدماء وبين المعتقد الديني السائد في المجتمعات المعاصرة، وهذا ما يتطلب – من وجهة نظرهم – النظرة التاريخية إلى الدين وتطوره.